الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد الثالث عشر ، السنة السابعة
ذو القعدة ١٤٠٨هـ - يوليو ١٩٨٨م

العربُ أسّسوا مُدن شـ
وحوّلوها لمراكز تجاريّة

لعب العرب دورا هاما فى تاريخ القارة الافريقية، وتاريخها الحضارى بصفةخاصة. وكان هذا الدور اكثر وضوحا فى شرق القارة، وفى شمالها وفى شمالها الغربى.

وسنقصر الحديث هنا على دور العرب الحضارى فى شرق القارة. وقبل التعرض لهذا الدور ومظاهره لابد من الاشارة بسرعة للمصادر الهامة التى أمدتنا بمعلومات عن هذه العلاقة بين العرب وشرق القارة، كما أننا سنشير فى عجالة الى تطور علاقات العرب بسكان شرق القارة حيث اننا سنركز على الاثار الحضارية للعرب فى هذه المنطقة فى الفترة بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

أولاً: مصادر معلوماتنا عن علاقة العرب بشرق أفريقيا

يرجع الفضل فى القاء الاضواء على علاقة العرب بشرق أفريقيا الى ما كتبه الرحالة العرب وغيرهم ممن زاروا هذه الجهات وكتبوا عنها ـ قبل ان تبدأ الابحاث الحديثة التى استطاعت على اساس ما كشفت عنه من آثار، وبقايا، ومن دراسات انثروبولوجية وغيرها ـ الكشف عن بعض الجوانب الغامضة

دور العرب الحضاري في شرق أفريقيا في القرنين الـ ١٦ ـ ١٧

بقلم الدكتور
شوقى عطا الله الجمل

شرق أفريقيا هامّة

فى العلاقات العربية الافريقية المبكرة.

ومن الرحالة العرب الذين كتبوا عن شرق افريقيا ـ المسعودى وقد زار الهند، والصين وزنجبار والصومال، ومدغشقر، وسجل مشاهداته فى هذه البلاد فى ثلاثين جزءاً وكانت زيارته لشرق افريقيا فى صحبة بعض التجار العرب من عمان، وساحل الخليج العربى، وجاءت آخر رحلاته لهذه المناطق فى عام ٣٠٤هـ (٩١٦م) ووصل فيها الى سفالة وتحدث بتفصيل عن حياة سكانها[١]

اما الادريسى فانه لم يزر ساحل أفريقيا الشرقى كما فعل المسعودى ـ لكن اهميته فيما نحن بصدده ترجع الى انه قضى معظم حياته فى بلاط الملك روجر الثانى (Roger II) ملك صقلية فاستفاد من ثراء هذا الملك، ومن الاخبار التى كانت تتناقلها السفن التجارية المترددة على سواحل جزيرة

صقلية فتحدث مثلا حديثا شائقا عن مدينة مالندى بشرق افريقيا ومناجم الحديد بها، وعن مدن ممبسة، وكلوة، وبراوه، وبركة ونشاطها التجارى كما تحدث عن غيرها من المدن الساحلية الاخرى بشرق افريقيا، وعن جزر المحيط الهندى مثل زنجبار.

ومن أشهر الرحالة العرب الذين زاروا مدن شرق افريقيا ابن بطوطة - فقد اشتهر بكثرة التجوال - إذ زار الهند والصين فى عام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) وزار مدن الساحل الشرقى لافريقيا وكتب معلومات مفصلة عن الحياة فى هذه المدن وما كانت تتمتع به من ثراء وفى مقدمة المدن التى زارها وقدم وصفا لها - مقديشيو، وممبسة، وكلوة، وقد وصف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بها معتمدا على مشاهداته هو حين زارها، وكذلك عما سمعه ممن قابلهم اثناء هذه الزيارة من الشخصيات البارزة فى هذه البلاد[٢]

أما عن المصادر الهامة التى تعرضت لتاريخ العرب بشرق افريقيا - خلاف كتابات هؤلاء الرحالة - ففى مقدمتها المخطوطة المعروفة (بالسلوة فى اخبار كلوة) وهى لمؤلف مجهول تعرض فيها لتاريخ مدينة كلوة منذ تأسيسها فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الى وصول البرتغال الى هذه البلاد فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى).

وأصل هذه الوثيقة مفقود لكن النسخة المعروفة لنا ترجع الى عهد السلطان برغش بن سعيد - سلطان زنجبار وهى بخط عبدالله بن مصبح الصوافى وقد أهداها السلطان للسير جون كيرك (Sir John Kirk) الذى اهداها بدورة للمتحف البريطانى وهى محفوظة هناك تحت رقم ٦٦٦، وقد قام بتحقيقها ارثر سترونج (Arthur Strong) ونشرها فى عام ١٨٩٥[٣]

ورغم أنه يتضح مما ذكره المؤلف فى مقدمته - انها من مقدمة وعشرة أبواب اورد محتوياتها وذكر انه سيختم كتابة بولاية الملك العادل السلطان محمد بن حسن بن السلطان سليمان بن السلطان محمد، وأنه صنف هذه المخطوطه بناء على طلب هذا السلطان - فان المخطوطة المنشورة تتوقف عند نهاية الباب السابع وقد كثرت الأقوال حول الابواب الثلاثة الباقية فمن قائل ان المؤلف قد اضطر للتوقف عند نهاية الباب السابع لأن الابواب الثلاثة التالية كانت تتناول فترة السيطرة البرتغالية، وهى فترة حرجة لم يستطع المؤلف معالجتها بصراحة ودقة، ومن قائل ان الامر يرجع لعدم عثورنا على

النسخة الاصلية الكاملة للمخطوطة[٤]

ولابد من الاشارة هنا وقبل ختام المصادر العربية الى انه من أوفى وأبعد ما كتب عن المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ما كتبه الدكتور جمال زكريا قاسم تحت عنوان المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع عشر ١٩٦٨ ص ١٦٩ ـ ٢٣٠)

اما عن المؤرخين الاجانب الذين تعرضوا للعلاقات العربية الافريقية ـ فلعل ما كتبه المؤرخ الانجليزى تشيتيك (Chittick) رئيس المعهد البريطانى للتاريخ والآثار بشرق أفريقيا عن كلوة من احسن ماكتب عن هذه البلاد ـ فقد استند فى كتاباته على ما اسفرت عنه عمليات التنقيب الاثرية فى هذه البلاد كما انه تعرض لبعض ما كتبه الرحالة والمؤرخون الآخرون من العرب وغيرهم عن شرق افريقيا فى دراسة مقارنة طيبة.[٥]

وقد تعرض غيره من الكتاب والمؤرخين الأجانب لدراسة تاريخ شرق أفريقيا وعلاقة العرب بهذه البلاد وتأثيرهم الحضارى فيها ـ لكن يؤخذ على أغلب الكتاب عدم التزامهم بالموضوعية فى دراساتهم وفى عرضهم للاحداث وتحليلها.

فالمؤرخ الانجليزى جرانفيل فريمان (Freeman – Granville) مثلا الف اكثر من كتاب عن شرق افريقيا ـ ابرز دور الهنود فى هذه الجهات وقلل من شأن العرب رغم مخالفة ذلك للامر الواقع[٦]

كذلك شأن المؤرخ اوليفر رولاند (Oliver, Roland) فى كتابه عن تاريخ شرق افريقيا وفجر التاريخ الافريقى حيث وصل الامر الى انه رجح ان الاسلام وصل الى شرق القارة عن طريق الهند بعد ان انتشر هناك، وتجاهل تماما جهود عرب شبه الجزيرة العربية فى هذا المجال رغم ان المنطق على الاقل يشير الى غير ذلك[٧]

وقد ركز بعض هؤلاء المؤرخين الاجانب على دور الفرس فى شرق افريقيا وغلبوه على الدور الذى قام به العرب هناك ـ ومن هؤلاء المؤرخ المعروف كوبلاند[٨]

هذه بعض المراجع والمصادر التى تعرضت لتاريخ شرق افريقيا ودور العرب فى هذه المنطقة فى هذه الفترة وان كنا لا نقلل من اهمية هذه المراجع فى دراسة تاريخ هذه المنطقة فاننا يجب ان نأخذ اقوالها بشيىء غير قليل من الحذر.

وقد افاض الاستاذ الدكتور جمال

زكريا فى بحث وتقييم المصادر العربية بالذات فى بحثه السابق الاشارة اليه والمنشور فى المجلد الرابع عشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٨) فليرجع اليه من اراد المزيد من المعلومات فى هذا الشأن.

ثانياً علاقات العرب المبكرة بشرق أفريقيا قبل الإسلام

تجمع المراجع المختلفة على ان علاقة عرب شبه الجزيرة بشرق افريقيا بدأت في وقت مبكر وبغرض التجارة . ويصعب تحديد زمن بعينه كبداية لهذه العلاقات .

وقد ساعدت عدة عوامل على هذه الاتصالات المبكرة بين العرب وسكان شرق القارة في مقدمة هذه العوامل عامل جغرافي هام ـ ففى ديسمبر من كل عام تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي ويستمر هبوبها بانتظام في هذا الاتجاه حتى نهاية فبراير ، ومن ابريل الى سبتمبر ينعكس اتجاه الرياح فتهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ـ من زنجبار الى مدخل خليج عدن ثم الى خليج عمان ـ فلقد أصبح في امكان التجار الذين يبدأون رحلتهم التجارية في سفنهم الشراعية الصغيرة ـ التي كان يطلق عليها اسم الداو (Dhows) من الشاطىء العربي في الشتاء ـ الاستعانة بقوة الرياح الذاتية في سفرهم جنوبا صوب الساحل الافريقي ، وفي اثناء عودتهم ـ الى اوطانهم في الربيع ـ وبعد ان يكونوا قد قضوا بضعة شهور في التجارة ـ يجدون ايضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الاصلي محملين بسلع افريقية متنوعة . وبمضى الوقت اصبحت للتجار والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها ، وأصبحت رحلاتهم بين شبه الجزيرة العربية والساحل الافريقي ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنظم تنظيما دقيقا تبعا لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم[٩] .

كذلك من الاسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم ـ العمانيون والحضارمة على وجه الخصوص ـ انهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب الجزيرة العربية ظهيرها طارد فكان طبيعيا ان يتسللوا الى شرق افريقيا في مجموعات

صغيرة انتشرت في البداية في بعض الجزر الساحلية مثل مافيا Mafia وزنجبار Zanzibar وبمبا Pemba ، وفي المراكز الساحلية مثل سفالة Sofala ومالندي Malindi وكلوه Kilwa وممبسة Mombassa ، ودار السلام . واستطاعت هذه المجموعات ان تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وحضارتها وان تندمج مع السكان الوطنيين(١٠) .

وأشير الى ما ذهب اليه بعض الجيولوجيين من أن شبه جزيرة العرب كانت في العصور الجيولوجية القديمة متصلة بالقارة الافريقية ومهما يكن فمن المرجح ان مضيق باب المندب كان في العهود القديمة أصغر مساحة مما هو عليه الآن ، وكانت القارتان اشد تقاربا فلم يكن يفصل بينهما أكثر من خمسة وعشرين ميلا - ولذا كان هذا الباب منذ اقدم العصور - طريقا لدخول موجات بشرية متتالية من شبه جزيرة العرب وبالذات لشرق افريقيا(١١) .

وهكذا اصبحت السفن العربية تحمل بين الحين والحين بعض الذين طاب لهم الاستقرار بالساحل الافريقي ليكونوا حلقة اتصال بين اخوانهم في الجزيرة العربية وبين سكان السواحل الافريقية والجهات الداخلية فيها ، وبمضي الزمن زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب امارات عربية في هذه السواحل الافريقية لها اتصال بالجماعات أو الشركات التجارية العربية - اذا صح التعبير - في الجزيرة العربية نفسها ، وبالتجار في القارة الافريقية ونحن نجد وجوه شبه كثيرة بين هذه العمليات العربية وبعض العمليات الاوربية في القرن التاسع عشر وما قبل القرن التاسع عشر في انها كانت عمليات تجارية تدار وتنظم بواسطة جماعات مالية تجارية . وفيما يتعلق بالشركات الاوربية كانت الادارة تستمر مدة في يد الشركة ثم بعد ذلك تتنازل الشركة عن الامتيازات التي حصلت عليها للحكومة ، واشهر مثال لذلك شركة الهند الشرقية البريطانية (British East India Company) التي استطاعت ان تحصل على امتيازات وحقوق في مناطق واسعة من الهند ثم انتقل الامر كله للحكومة الانجليزية ، وبالطبع لم تبلغ الشركات أو الجماعات التجارية العربية هذا القدر من التنظيم الذي بلغته هذه الشركات الاستعمارية الاجنبية لكنها كانت على كل حال تتمثل في مجموعات من التجار يساهمون ويشتركون في هذا النشاط لكن لم تكن وراءهم حكومة مركزية واحدة - فكان الامر ينتقل في النهاية لاحد الرؤساء يطلق على نفسه لقب سلطان أو أمير فتصبح له الكلمة كما ان الغرض التجاري كان

هو الغالب على هذه الجماعة العربية فلم تكن الفكرة كما كانت عند الكثير من الشركات الاوربية ـ فكرة استعمارية أي استغلال الارض ثم الانتشار منها للداخل ، ولهذا كان الاستقرار غالبا مقصورا على الساحل فحسب ، وفي نقط مختارة تخدم هذا الهدف التجاري ، ولذا كانت تختار هذه النقط بحيث تكون لها مزاياها التجارية ، كثغر من الثغور سهل الاتصال بداخل القارة ، ويسهل ايضا الوصول اليه من الجزيرة العربية المقابلة .

فالغرض الاساسي من الاستقرار العربي بالساحل الافريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية هو استغلال الحاصلات الداخلية ونقلها للثغور الساحلية للاتجار فيها ، وكذلك استيراد ما يمكن تصريفه من البضائع داخل القارة ـ ولهذا لم تهتم هذه الجماعات العربية بامتلاك الارض الا بالقدر الضروري لحماية الثغر التجاري ومن ثم كانت رقعة الممالك العربية على الساحل الافريقي ضيقة ، ولا شك في ان عوامل طبيعية اخرى أملت الى حد ما عدم الانتشار للداخل ، منها عوائق تتمثل في التضاريس ، والمناخ ، والنبات ، لكن لا شك ايضا في ان الاغراض التجارية حتمت في كثير من الاحيان ارسال حملات للداخل لحماية القوافل وضمان وصولها ، ولعقد اتفاقات تجارية مع امراء افريقيين في الداخل ، ولذا فقد انتقل النفوذ العربي في ظروف كثيرة نحو باطن القارة وترتب على هذا معرفة العرب ببعض الجهات الداخلية في القارة الافريقية قبل ان يتجه اليها نشاط المستكشفين الاوربيين .

ويمكن ان نتصور ان التوسع العربي في ساحل شرق افريقيا قد مر بمرحلتين[١٢] :

١ ـ اقتصر الامر في البداية على الجزر الساحلية «زنجبار وممباسة وبمبا ، ولامو» وعلى بعض الاقاليم الساحلية .

٢ ـ انتشر النفوذ العربي بعد ذلك في شرق القارة في المناطق المواجهة للجزر ثم أخذ يتوغل في الداخل وأدى هذا لظهور المدن ثم الامارات العربية بشرق القارة . وبظهور الاسلام برزت عناصر اخرى جديدة دفعت لهجرة العرب لشرق افريقيا .

ثالثاً تطوّر علاقات عرب شبه الجزيرة بشرق أفريقيا في ظل الإسلام

بظهور الاسلام دخلت علاقات عرب شبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا في مرحلة جديدة فقد حدثت اسباب ودوافع أدت لهجرة جماعات من عرب شبه الجزيرة العربية لشرق افريقيا لا للتجارة فحسب بل للاقامة الدائمة والاستقرار في هذه المناطق .

وكانت اولى الهجرات العربية المعروفة الى شرق القارة في فجر الاسلام - الى ارض الحبشة فقد اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام دون غيرها من البلاد لهجرة اصحابه عندما اتجهت قريش الى تعذيبهم وسجنهم وذلك لأن ملك الحبشة اشتهر بعدم التعصب لفريق دون فريق أو مذهب أو ديانة دون ديانة(١٣) .

وكانت بلاد الحبشة معروفة للعرب فقد كانت لقريش بها صلات وثيقة ومصالح متبادلة ، وزيارات منتظمة وكان التجار العرب يستعينون بالاحباش بكثرة في حروبهم القبلية وفي حراسة قوافلهم كما كان بمكة عدد غير قليل من العبيد الاحباش - ادرك بعضهم الاسلام وأسلم(١٤) .

وقد اشار الطبري الى ذلك فقال : «ان ارض الحبشة كانت متجرا لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا»(١٥) .

ونشير الى ان الهجرة الى ارض الحبشة كانت أول هجرة في الاسلام وأنها تمت في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة المحمدية (٦١٥م) حيث خرج أحد عشر رجلا واربع نسوة من المسلمين متسللين فوصلوا الى ميناء الشعيبة ومنها حملتهم سفينتان للتجار الى ارض الحبشة(١٦) .

وتوالت بعد ذلك هجرات العرب المسلمين الى ارض الحبشة وبقي المهاجرون المسلمون بأرض الحبشة حتى استقرت الامور للمسلمين في المدينة المنورة ، ويبدو ان المسلمين الذين استقر بعضهم بالحبشة ما يقرب من ستة عشر عاما لقوا من النجاشي معاملة طيبة ، واستمرت العلاقات الودية بين العرب والحبشة بعد عودة المهاجرين العرب لشبه الجزيرة العربية(١٧) .

على ان الاوضاع السياسية في شبه جزيرة العرب كان لها آثارها على هجرة العرب للساحل الافريقي المقابل فحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الاحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر الى شرق افريقيا وتتخذ هذه الجهات موطنا لها ، فأثناء حكم عبدالملك بن مروان مثلا هاجر عدد من العرب الى لامو واستقروا بها(١٨) .

وأدت سياسة البطش التي اتبعها الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبدالملك بن مروان على العراق الى هجرة عدد كبير من المعارضين لهذه السياسة الى شرق افريقيا .

وقد أسهمت امارة عمان التي تشغل الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ويحدها المحيط الهندي من ناحيتين والصحراء العربية من الداخل بالنصيب الاكبر في تزويد الساحل الافريقي الشرقي بعناصر جديدة من العرب باستمرار .

فقد كانت هذه الامارة كالجزيرة المنعزلة ، وكان لهذا الموقع أثره في طباع السكان وميولهم فلم يقبلوا الخضوع لاية قوة بل ظلوا يناضلون ضد النفوذ الفارسي ثم العثماني ، بل ان خلفاء المسلمين انفسهم لم يكن لهم الا نفوذ أسمي على عمان .

وفي القرن الثامن الميلادي انتخب حاكم لعمان يلقب بالامام ، وظل يتعاقب على الحكم في عمان عدد من الائمة المنتخبين لمدة عشرة قرون .

والعرب في عمان عبارة عن خليط من عدة قبائل عربية لكن اهمها قبيلة أسد وكانت مدينة مسقط هي المنفذ البحري للامارة وكانت هذه المدينة هي النافذة التي أطل منها أهل عمان على العالم الخارجي فخرجوا لعرض البحر وساهموا في التجارة العربية في المحيط الهندي ، وذاعت شهرتهم في بناء السفن فكانوا يبحرون لجزيرة زنجبار وغيرها من الجزر التي اشتهرت بأشجار جوز الهند الضخمة التي تصلح لصناعة السفن فيقطعون الاخشاب ويصنعون منها السفن ويحملونها بثمار جوز الهند لتسويقها في الجهات البعيدة .

وان كانت مسقط تعتبر بابا للخروج لكنها لم تكن كالبصرة مثلا تعتبر ميناء للخروج كما تتحكم ايضا في الطريق البري المؤدي لاوربا ومنها ، فكان طبيعيا ان يخرج اهلها للبحار وان يبحث هؤلاء البحارة المهرة من أهل عمان عن وسيلة للثراء لا تعتمد على البر بل يستغلون فيها مهارتهم البحرية ومن ثم فقد اندفعوا بكامل قوتهم للبحر وأصبحت لهم السطوة في الخليج العربي والمحيط الهندي وانتهى المطاف بجموع منهم بالاستقرار على الشاطىء الشرقي لافريقيا لخدمة الاغراض التجارية بها وأدى ذلك لتكوين امارات عربية في هذه الجهات[١٩] .

ويعتقد ان العمانيين يرجع اليهم الفضل في تكوين أقدم امارة اسلامية في شرق افريقيا فعندما هاجروا الى لامو كما ذكرنا سابقا واستقروا في المناطق الواقعة شمال ممبسة نجحوا في مستهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) في تكوين حكومة تعتنق مذهب الخوارج الذي كان منتشرا في عمان في ذلك الوقت[٢٠] .

واستطاع العمانيون ايضا عن طريق المصاهرة بين الاسرة النبهانية صاحبة النفوذ في عمان وبين حاكم جزيرة بات Pate بالساحل الافريقي مد نفوذهم الى هذه الجزيرة . ففى اوائل القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) تزوج سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى امير عمان

بابنة حاكم بات والت السلّطة بعد ذلك الى الاسرة النبهانية التي ظلت تحكم هذه المنطقة حتى القرن التاسع عشر الميلادي[٢١] .

وقد نجح ائمة عمان في ان يمدوا سلطانهم على ساحل افريقيا الشرقي من ارض الصومال حتى نهر روفوما Rovuma وان يقيموا في هذه المناطق امارات تابعة لهم ، وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية في ممبسة وزنجبار وغيرهما من المناطق الهامة وظل سلطان ائمة عمان قويا ومعترفا به في كلوة ، ومافيا ، وبمبا ، وزنجبار حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين بدأت الدول الاوربية تلتهم املاك سلطان زنجبار .

هذا فيما يتعلق بالعمانيين ودورهم في شرق افريقيا على اننا نشير بوجه عام الى ان ما تعرضت له الدولة الاسلامية في تاريخها من صراعات وأزمات ادى لهجرات مستمرة من المسلمين لساحل افريقيا الشرقية ، فحدث حين شدد الخليفة الاموي هشام بن عبدالملك قبضته على الشيعة الزيدية باليمن ان هاجر عدد منهم الى شرق افريقيا حيث استقر بهم المقام هناك وأصبح لهم نفوذ على ما عرف باسم ساحل البنادر[٢٢] .

وحدث مثل هذا ايضا حين اشتد النزاع بين الأمويين والعباسيين وانتهى بالقضاء على الدولة الاموية وفرار مروان الثاني آخر خلفاء الامويين الى مصر وتوغله مع عدد من أتباعه الى صعيد مصر ووصولهم الى النوبة ، بينما توجه بعضهم الى مصوع ، كما حدث حين احتدم النزاع بين العباسيين والشيعة واستمر هذا الصراع حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما بعد ذلك وادى لهجرة المغلوبين على أمرهم من وجه قوات اعدائهم ، وكان ساحل شرق افريقيا بموقعه الجغرافي ولمعرفة العرب السابقة به ملجأ لهؤلاء الفارين الراغبين في الاستقرار في اماكن بعيدة عن متناول ايدي اعدائهم[٢٣] .

رابعاً الآثار الحضارية للعرب في شرق أفريقيا

استقر العرب كما رأينا في شرق افريقيا من وقت مبكر وساعدت الاحداث المتتابعة في بلاد العرب على المزيد من الهجرة العربية والاستقرار بشرق افريقيا ، وكانت للعرب الذين استقروا بشرق القارة ومازالت آثار عميقة في حضارة هذه البلاد وسكانها يمكن ان نجملها فيما يلي :

١ . تأسيس المدن والحواضر الهامة وتعميرها وادارتها :

ترتب على استقرار العرب بشرق افريقيا قيام تجمعات سكانية لم تلبث ان نمت وأدت لقيام عدد من المدن الهامة ، وقد قامت هذه المدن في البداية كمراكز تجارية لخدمة التبادل التجاري ثم بالتدريج ازدهرت وتطورت واصبحت نواة لامارات عربية هامة وامتدت هذه المدن بطول الساحل الافريقي من سواكن شمالا الى سفاله جنوبا[٢٤] .

كما استقر العرب في جزر المحيط الهندي مثل جزر بمبا ، وزنجبار ، ومافيا ، وكلوه ، وجزر القمر وغيرها[٢٥] .

ونلاحظ ان بعض هذه الجزر كان قريبا من الساحل لا يفصلها عنه سوى خور بحري ضيق بينما كان البعض الآخر بعيدا عن الساحل وقد عمرت هذه الجزر بقدوم العرب واصبحت هي الاخرى مراكز تجارية هامة .

وقد شبه البعض هذه المراكز العربية بالساحل الشرقي للقارة أو الجزر القريبة منه بالمدن اليونانية (City States) حيث ان استمرار الهجرة الى هذه المناطق ترتب عليه وجود مجتمعات مكتملة منظمة وكان الشيوخ يؤلفون ما يمكن ان نشبهه بمجلس المستشارين يشارك الحكام في المسئولية وكان الافراد يلجأون لهذه المجالس طالبين رد الظلم أو الانصاف من جور اعدائهم[٢٦] .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تاريخ كل مدينة من المدن التي أسسها العرب في شرق القارة وتطور نموها خلال القرون المتعاقبة لكن نشير لأهم هذه المدن .

فبعض المؤرخين يرجعون تأسيس مدينة مقديشيو (Magadishu) عاصمة جمهورية الصومال حاليا الى هجرة جماعة من الحميريين الى الساحل الافريقي حيث استقروا وأسسوا المدينة ، وقيل انه تم انشاؤها قبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام بمائتي عام ، بينما يرجع آخرون تأسيسها الى وقت متأخر حين اشتد الصراع بين العباسيين والقرامطة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ففر بعض افراد من القرامطة ونزلوا ساحل الصومال وشيدوا مدينة مقديشيو ، ثم جاء في اعقابهم تجار من شيراز يعزى اليهم بناء مسجد الاحقاف ثم جاء بعدهم تجار من العراق استقروا بهذه البلاد للتجارة ايضا ، واستمرت مقديشيو في النمو والازدهار واصبحت قبلة الوافدين من الجزيرة العربية وغيرها من البلاد الاخرى[٢٧] .

وهناك روايات مماثلة تروى عن تأسيس مدينة كلوه ، فالبعض يذكر ان بعض المسلمين هاجروا لهذه المنطقة من جزيرة العرب واستقروا فيها وأسسوا مسجدا ، والبعض

يربط بين هذه المدينة وبين الحسن بن علي الشيرازي من الأسرة الحاكمة في شيراز وانه واتباعه اضطروا للهجرة من وجه السلاجقة ويرجعون هذه الهجرة الى ما بين ١٠٥٥ ، ١١٠٠ .

وقد زار ابن بطوطة مدينتي مقديشيو وكلوه خلال رحلته التي قام بها بشرق افريقيا وتحدث عن مشاهداته بهذه المدن ومظاهر الحضارة بها .

وترتب على غارات المغول ودخولهم بغداد في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨) دفع مزيد من المسلمين للهجرة الى الساحل الشرقي لافريقيا[٢٨] .

ويرتبط تأسيس مدينة سفاله بالتجارة في الذهب ويرجح ان العرب قد جاءوا الى المنطقة الواقعة قبالة جزيرة مدغشقر في عام ٣٠٣هـ (٩١٥م) بهدف التجارة في الذهب المستخرج من المناطق الداخلية والتي اطلقت عليها بعض المصادر العربية اسم (ظفار ـ الزنج)[٢٩] .

وسفاله هي اقصى منطقة في الساحل الشرقي لافريقيا وصل اليها العرب ، وقد ظلت سفاله مركزا تجاريا هاما للعرب حتى اوائل القرن السادس عشر . وقد تحدث ابن ماجد عن سفالة ووصف مناخها وسكانها وطبيعة ارضها ومعادنها وذلك في الارجوزه التي أطلق عليها اسم الارجوزة السفالية[٣٠]

ويرجع البعض تأسيس براوة الى جماعة قدمت من الاحساء في اوائل العام الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأخذت المدينة تنمو وتزدهر منذ ذلك الوقت .

وترجع هجرة العرب بأعداد غفيرة الى لامو الى فترة حكم الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ، وفي اثناء اشتداد الصراع بين الامويين والعباسيين .

وقد تتابعت هجرة العرب الى لامو في السنوات التالية حتى عمرت المدينة وازدهرت .

ومن الموانىء الهامة التي أسسها العرب في الساحل الشرقي للقارة مدينة مالندي .

ويقال ان اول من وفد اليها جماعة من العراق ، لكن خربت المدينة التي أسسها العراقيون في حوالي عام ٣٦٥هـ الى ان جاءت جماعات اخرى من شيراز ومن شبه جزيرة العرب فأعادت بناء المدينة .

ومن المدن الهامة في الساحل الافريقي الشرقي مدينة ممبسة ويرجح أن جماعة من عمان رحلت للساحل الافريقي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث أسست هذه المدينة وأطلقت عليها هذا الاسم وهو اسم مدينة في عمان[٣١] .

وقد كانت هناك منافسة شديدة بين مالندي وممبسة على السيادة في هذه المنطقة بالساحل الافريقي ، وقد زار ابن بطوطة ممبسة في عام ١٣٣١ وتحدث عن المدينة ومساجدها وسكانها[٣٢] .

وقد وقفت ممبسة في وجه البرتغال ورفضت الخضوع لهم سلما وقد انتقم البرتغال من المدينة وسكانها فخربوها وسلبوا ما استطاعوا سلبه واشعلوا النار في الباقي منها كما سنشير اليه بتفصيل اكثر فيما بعد .

وبالاضافة لهذه المدن والموانىء الهامة التي انشأها العرب في شرق افريقيا والتي عرفنا عن تاريخها وحضارتها مما كتبه الرحالة عنها نشير الى انه كما يبدو كان هناك عدد كبير أخر من المدن والمواقع العربية بالساحل الافريقي لكنها اندثرت فلم تلق من الشهرة ما لقيه غيرها من المدن التي بقيت حتى مجيء البرتغال في نهاية القرن الخامس عشر وكانت لهم معهم مواقف محددة ، وقد أوردت بعض المراجع بيانات عن بعض هذه المواقع العربية التي اندثرت[٣٣] .

أما عن نظام الحكم والادارة في هذه المدن :

فلا توجد لدينا صورة كاملة تفصيلية عن نظام الحكم في المدن العربية لشرق افريقيا ، لكن نستطيع من كتابات الرحالة الذين زاروا هذه المناطق خاصة في الفترة السابقة لوصول البرتغاليين لشرق القارة ، وكذلك مما كتبه البرتغاليون انفسهم ، ان نكوّن صورة قريبة من الواقع عن النظام الذي ساد هذه المدن .

وبالاجمال يمكن القول ان العرب الذين جاءوا لساحل شرق افريقيا جاءوا بتقاليدهم القبلية وعاداتهم وان تأثرت بالطبع بما كان سائدا في هذه المناطق من تقاليد افريقية ، لكن على العموم لم يشهد الساحل قيام وحدة سياسية كاملة ولا وجدت امبراطورية عربية تجمع شتات المدن وان كانت هناك محاولات قامت بها بعض المدن من أجل فرض نوع من السيطرة على المدن الاخرى والاشراف على اوجه النشاط الرئيسية كالتجارة في الموانىء ، وباستثناء فترات قصيرة استطاعت فيها سلطة اسلامية ان تفرض نفوذها على معظم مدن الساحل وتطالبها بدفع الجزية رمزا للتبعية[٣٤] .

وكما قلنا ان المدن العربية التي قامت في شرق القارة كانت تتمتع بنظام خاص للحكم فقد كانت كل منها تحت حكم حاكم يصل للسلطة اما عن طريق الوراثة أو القوة ، ويعاون الحاكم مجلس من الشيوخ المحليين وكان في بعض الاحيان الى جانب الحاكم وزير اول وسكرتير دولة ، وقاض أو أكثر بالاضافة الى المحتسب وخطيب المسجد وعدد من الموظفين والمعاونين[٣٥] .

فمدينة كلوه مثلا بلغت منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) درجة كبيرة من السطوة والنفوذ وزاد نفوذها وامتد الى موانىء الجنوب وعند وصول البرتغال الى موزامبيق كان بها ممثل لسلطان كلوه[٣٦]

كذلك أصبحت مدينة بات في القرن الرابع عشر تمثل قوة كبرى تحت حكم أسرة النبهان ، وقد مدت هذه الاسرة نفوذها على براوة ومقديشيو ولامو ومالندي ونافست كلوه السيادة في هذه المناطق .

وهكذا نستطيع ان نقول ان هذه المدن أو المراكز العربية بساحل افريقيا كانت في أغلب فترات تاريخها مدنا مستقلة فلم تكن هناك امبراطورية عربية واحدة تضم هذه المدن باستثناء فترات ليست طويلة استطاعت فيها سلطة واحدة ان تبسط سلطانها على مساحة من الساحل ، ومن هذه المحاولات التي نجحت في ربط المدن الساحلية الهامة بعضها بالبعض الآخر ما قامت به الاسرة الشيرازية التي ظلت تحكم كلوه وما تبعها من مدن الساحل مدة طويلة امتدت لثلاثة اجيال متتالية ثم تلتها في نهاية القرن الثالث عشر اسرة المهدي وهي اسرة من الزيديين جاءت من اليمن ، كذلك الدولة الاسلامية التي عرفت باسم (دولة الزنج) والتي نجحت في اواخر القرن الخامس عشرالميلادي في توحيد معظم المراكز الاسلامية على ساحل شرق افريقيا وظلت قائمة حتى سقطت على يد البرتغال في اوائل القرن السادس عشر(٣٧) .

ولا بد من الاشارة الى ان معظم معلوماتنا عن نظام الحكم في هذه الامارات العربية نستقيه مما كتبه بعض الرحالة العرب مثل ابن بطوطة(٣٨) عن مشاهداتهم اثناء رحلاتهم ، كذلك الرحالة أو المكتشفون البرتغال فقد ذكروا بعض ما شاهدوه عندما وطأت اقدامهم هذه البلاد ، فقد ذكر الرحالة فاسكو داجاما Vasco da Gama الذي اشتهر برحلته حول افريقيا في اواخر القرن الخامس عشر ما شاهده في موزامبيق من مظاهر حضارية ، كذلك دوراث باربوسا Duarte Barbosa تحدث عن أوضاع كلوه وممبسه ومالندي ، وبمبا وزنجبار وقت زيارته لها .

ويعلق كوبلاند على ما اشار اليه البرتغاليون الذين وصلوا لاول مرة لشرق افريقيا فدهشوا للمظاهر الحضارية التي لمسوها بهذه الجهات التي لم يكونوا يعرفونها فعلق على ذلك بقوله : «اننا يجب الا نندهش لما يذكره هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب لشرق افريقيا فان العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة في الغالب فلا شك في ان مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التي في اكسفورد أو في أي مدينة مسيحية اخرى(٣٩)

وتُغنينا هذه الشهادة من أجنبي استعماري عن كل تعليق آخر .

ورغم ان كوبلاند ذكر ان العرب كانوا في السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكمة

صاحبة السيادة لكن مما لا ريب فيه انهم لم يكونوا بعيدين عن السكان أو متباعدين عنهم ، فقد كان هناك تقارب وتجانس ، وكانت هناك مصالح مشتركة ، وأدى هذا للاختلاط والتزاوج ، وقد عاد الكاتب فناقض نفسه واعترف في اكثر من موضع في كتابه بروح المحبة التي سادت بين السكان الاصليين وبين المهاجرين العرب وترتب عليها تزاوجهم ، وكانت نتيجة ذلك جنس تميزت فيه الصفات الزنجية المعتدلة كما أثرت فيه كثير من العادات والصفات العربية(٤٠).

وقد ابرز جميع الكتاب والرحالة الحقيقة التي ذكرناها سابقا وهي ان العرب في شرق افريقيا كوّنوا امارات متفرقة فلم تكن لهم امبراطورية متحدة فعلا ولو انه في فترات متقطعة كانت لامارة منها سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة امارات ، فحين جاء البرتغال مثلا لشرق افريقيا في القرن الخامس عشر كانت لامارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبي من الساحل ، ولما وصل فاسكو داجاما الى موزامبيق وجد ان حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوه وكان يجبي الضرائب لحسابه على كل السفن التجارية التي ترد للمدينة ، وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطاني كلوه وممبسه ، وهكذا ـ كما ذكر هؤلاء الرحالة ـ كان لامراء كلوه شيء من السيادة سواء عن طريق القوة أو عن طريق السياسة والمصاهرة ـ على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقي وان لم تكن لهم السيادة الكاملة بالمعنى الذي نعرفه اليوم .

على انه يستفاد ايضا من كتابات هؤلاء الرحالة ان الامارات العربية كان قيامها على الساحل وان تعمقها للداخل كان فقط بالقدر الذي يخدم الغرض التجاري فكل ما كان يهم هذه الامارات هو تسويق منتجاتها الواردة من الجزيرة العربية وجهات آسيا الاخرى ومبادلتها بالعاج والذهب الروديسي والعبيد وغير ذلك من منتجات هذه الجهات فلم يتعمقوا الى الداخل الا بقدر ما تطلبه عملية المبادلة هذه .

٢ ـ الآثار الاقتصادية للعرب في شرق افريقيا :

لقد كان التبادل التجاري في مقدمة الدوافع التي دفعت العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية لشرق القارة ، وأدى هذا كما رأينا لاستقرار جماعات عربية بشرق القارة وتكوين المدن والامارات العربية هناك .

والحقيقة ان وجود العرب بهذه المناطق أدى لنهضة اقتصادية شاملة ولتطوير في المعاملات وفي أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة .

وقد أشار الرحالة العرب والاجانب الى ازدهار الحركة التجارية بين شرق افريقيا وشبه جزيرة العرب ـ اشار لذلك المسعودي وابن بطوطة كما اشار

دورات باربوسا (Duarte Barbosa) وغيرهم وليس هذا بغريب فقد كان العرب في الفترة من القرن الاول الهجري حتى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سادة المحيط الهندي والمتحكمين في التجارة بين اوربا واسيا عبر هذا الطريق ، وقد اتسعت حركة هذه التجارة فشملت تجارة التوابل وأدوات الترف الشرقية التي يحضرونها من الهند وسيام والفلبين والصين بالاضافة الى سن الفيل والعاج والذهب والحديد ، والرقيق وغيرها من واردات شرق افريقيا ، وبذا أصبح شرق افريقيا حلقة هامة في شبكة هذا التبادل التجاري واصبحت هناك مراكز مهمة على امتداد هذا الطريق من الصين شرقا الى اوربا[٤١] .

وفيما يتعلق بصادرات شرق افريقيا يأتي الرقيق في مقدمتها ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان تجارة الرقيق كانت معروفة قبل مجيء العرب الى شرق القارة كما انه حتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر لم تكن لهذه التجارة صورتها البشعة وتطوراتها التي تطورت اليها بعد ذلك حين ادخل الاوربيون الاسلحة النارية في عمليات القنص وتوسعوا في استخدام الرقيق الافريقي لسد حاجاتهم المتزايدة للايدي العاملة الرخيصة في العالم الجديد فتضخمت هذه التجارة البشعة واتخذت صورا واساليب اخرى[٤٢] .

ويأتى العاج فى مقدمة صادرات شرق أفريقيا وكان يصدر إلى الهند ، والصين وغيرهما ويستخدم فى صناعة مقابض السيوف والخناجر وأدوات الزينة وتطعيم المصنوعات الخشبية وغيرها من المصنوعات العاجية والتماثيل التى اشتهر بها هذا العصر وقد تميز عاج شرق أفريقيا بليونته وسهولة تشكيله [٤٣] .

كذلك يأتى فى قائمة صادرات شرق أفريقيا الصمغ العربي وجوز الهند وزيت النخيل ومن المعادن الذهب والفضة .

وقد دلت المعلومات التى وصلت إلينا على أن الذهب كان يستخرج بكميات كبيرة من مناجم شرق أفريقيا (منطقة زيمبابوى الحالية) وكان ميناء سفالة هو الميناء الرئيسى لتصدير الذهب ، وقد أدى هذا بالبعض الى الربط بين شهرة شرق أفريقيا فى الذهب ودور العرب فى عمليات التعدين بهذه الجهات وبين كنوز الملك سليمان وقصة مملكة سبأ .[٤٤]

وحين وصل البرتغاليون إلى شرق القارة كان نشاط العرب التجاري فى مجال التعدين وتجارة الذهب قد وصل إلى ذروته فقرروا الاستيلاء على القواعد العربية الهامة فى شرق القارة والقضاء على نفوذ العرب التجارى ونشاطهم فى مجال التعدين .. وسنشير لهذا بالتفصيل فيما

بعد .(٤٥)

كذلك كانت التوابل والبخور من صادرات شرق أفريقيا لأوروبا فقد كانت التوابل كالقرفة والقرنفل وجوزة الطيب واللبان والفلفل تضاف إلى الطعام كما تستخدم فى العلاج ، كما أن البخور كان لازما وازداد الطلب على هذه المنتجات وقد فرض المماليك فى مصر والحجاز قيودا على نقل هذه البضائع لأوروباوفرضت المكوس الباهظة على السفن التى تنقلها عبر موانىء الشام ومصر وكان هذا من الدوافع الرئيسية وراء محاولات البرتغاليين للسيطرة على المراكز الرئيسية لهذه المنتجات واكتشاف طريق آخر لنقلها لأوروبا دون المرور بالموانىء التى يسيطر عليها المماليك .(٤٦)

هذا ولم يقتصر نشاط العرب الاقتصادى فى شرق القارة على التجارة فقط فقد كان لوجودهم واستقرارهم فى بعض المناطق بشرق أفريقيا أثره على ازدهار الزراعة وعلى الاهتمام بالثروة الحيوانية وان كان نشاطهم فى هذا المجال أقل من نشاطهم فى مجال التجارة والتبادل التجاري .

كذلك نشير الى دور العرب فى ازدهار بعض الصناعات كصناعة المنسوجات القطنية وبعض الصناعات التعدينية المتصلة باستخراج معادن الحديد والذهب .

وأشير إلى أن النشاط الاقتصادى للعرب بشرق القارة وما ترتب عليه من تبادل تجارى اتسع نطاقه شرقا إلى الهند والصين وغربا الى أوروبا ترتب عليه وجود عملة تستخدم كوسيلة لهذا التبادل بدلا من طريقة المقايضة التى كانت سائدة وقد عثر على العديد من العملات النحاسية الخاصة بامراء كلوة ومافيا وزنجبار وممبسة وغيرها من امارات شرق افريقيا فى عصور مختلفة .(٤٧)

وتحتفظ المتاحف الخاصة بالبرتغال بالعديد من هذه العملات .(٤٨)

هذا كما عثر فى شرق افريقيا على بقايا متعددة من الخزف الصينى وغيره من صناعات الصين والهند وأندونيسيا وكلها ترتبط بهذا النشاط العربي والتبادل التجاري بين ما نسميه اليوم بالشرق الأقصى وشرق افريقيا .

٣ ـ أثر العرب فى الحياة الاجتماعية فى شرق أفريقيا :

لا تكاد توجد لدينا دراسات وافية عن طبقات المجتمع فى شرق أفريقيا وعن حياتهم الاجتماعية ، كما أنه لا توجد لدينا احصاءات وافية عن السكان من حيث العدد والنوع . لكن نستطيع أن نلم ببعض المعلومات عن السكان وعاداتهم وتقاليدهم من خلال كتابات الرحالة العرب والأجانب .

والحقيقة التى نستشفها من هذه

الكتابات أنه فى المدن والامارات العربية بشرق افريقيا وجدت أجناس متعددة . فقد كان هناك العرب الذين وفدوا من أجيال واستقروا واستوطنوا هـذه البلاد واختلطـوا بالسكـان الأصليين (الافارقة) وأصبحت هذه الامارات العربية مزيجا تجمع فى أنظمتها بين أشياء افريقية أصيلة وأشياء عربية .. ولكن مما لا شك فيه أن العرب المهاجرين إلى هذه الجهات قد حملوا معهم تقاليدهم وعاداتهم .

وقد لمس ابن بطوطة بنفسه أن العرب فى هذه المناطق التى استقروا فيها لم ينسوا تقاليدهم وعاداتهم كما نوه الرحالة الأوروبيون أيضا الذين زاروا هذه الامارات العربية بشرق أفريقيا بما لمسوه فى هذه المجتمعات من رقى وتحضر .

ورغم أن كوبلاند مثلا يذكر أن العرب كانوا فى السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكة صاحبة السيادة .. لكن مما لاريب فيه أنهم لم يكونوا بعيدين عن باقى السكان .(٤٩)

وإلى جانب العرب وجد الهنود الذين وفدوا للساحل بأعداد غفيرة أيضا وكان لهم نشاطهم التجارى ونشـاطهم فى أوجـه الاقتصـاد الاخرى .(٥٠)

وقد ترتب على التزاوج بين العرب والأفارقة فى شرق القارة نشأة الشعب السواحيلى بمميزاته اللغوية وصفاته التى هى مزيج من الصفات العربية والصفات التى كان يتميز بها البانتو الافارقة ، واللغة السواحيلية التى انتشرت فى سواحل شرق أفريقيا تمثل هذا المزج بين الحضارتين العربية والتقاليد والعادات الافريقية .

ولا شك فى أن التأثيرات العربية لم تكن فى كل مكان بنفس القوة .. رغم أن الحضارة العربية باعتبارها كانت فى ذلك الوقت متفوقة فقد كان لها الغلبة فى كثير من المجالات على العادات والتقاليـد التى توارثهـا الافارقة وهذا شىء طبيعى . ويقسم بعض المؤرخين السواحيليين بشرق القـارة الى سواحيليـين شماليـين وسواحيليين جنوبيين والبعض لا يجد أساسا قويا لهذا التقسيم .(٥١)

لا نستطيع أن نقر التقسيمات التى يحاول البعض تقسيم المجتمع بشرق القارة إليها كما هى . فقد ذكر كوبلاند العرب باعتبارهم فى قمة هذا المجتمع الذين يمثلون الارستقراطية الحاكمة فيه ثم المولدين نتيجة الاختلاط بين العرب والافارقة فالهنود ، ثم العبيد فى القاعدة .(٥٢)

ورغم أن الهنود مثلا تميـزوا بنشاطهم فى التجارة وبعض الأعمال المالية واليدوية بينما كان العبيد يعملون فى أعمال الزراعة التى تحتاج لجهد عضلى وفى خدمة الحريم فإن التمييز والفصل بين هذه الطبقات لم يكن بهذا العنف . هذا وأشير إلى أنه

ليس لدينا تقدير دقيق لعدد السكان فى كل مدينة وتوزيعهم تبعا للطبقات أو الاجناس ، فقد اختلفت التقديرات التى أعطاها الكتاب والرحالة اختلافا كبيرا يدعو لعدم الاطمئنان لأى منها .(٥٣)

وقد أعطانا ابن بطوطة صورة لا بأس بها للمجتمع فى شرق أفريقيا وقت زيارته لهذه البلاد ، فوصف عادات الناس فى المأكل والملبس وتقاليد الضيافة وبعض العادات وتقاليد ومراسيم السلطنة . ولا شك فى أن الصورة التى رسمها ابن بطوطة لهذا المجتمع قبل وصول البرتغاليين للساحل تدل على مدى التقدم الحضارى الذى بلغه هذا المجتمع وأثر العرب القوى والواضح فى ذلك .(٥٤)

وقد أكدت أقوال الكتاب البرتغاليين الأوائل الذين زاروا الساحل بعد ذلك هذه الحقيقة .

ومن الأشياء الهامة التى أبرزها ابن بطوطة تقاليد السلطنة ، وأشار الى معاونى السلطان من الأمراء والقضاة والفقهاء والوزراء وما يتبع من مراسم عند استقبال السلطان لكبار الزوار .. فتدق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية بما يشبه السلام الوطنى اليوم .

وهناك مندوبون فى الموانىء لاستقبال الزوار كما أن للسلطان حاشية ، وتوجد بعض السجلات لتسجيل أسماء الزائرين ، كما أن هناك دارا للضيافة وغير ذلك من مظاهر الحضارة التى تعتبر فريدة فى ذلك العصر .(٥٥)

أما عن المبانى سواء الأميرية أو المساجد أو المنازل فقد كانت فى كثير من مدن الساحل مبنية بالحجر والملاط وهى جميلة ومنسقة والشوارع مرصوفة بالاحجار .(٥٦)

وإذا كانت المنازل الحجرية ـ كما يرجح ـ منازل الطبقة الغنية من المجتمع فإن منازل عامة السكان كانت ـ كما يعتقد ـ مبنية من الطين والبوص والقش على نظام المسكن الأفريقي المعروف فى القارة ، وأثاث المنزل يختلف من طبقة لأخرى . بينما أشاد الرحالة بأثاث منازل الاثرياء التى كانت تحوى الكثير من وسائل الراحة والتى غطيت أرضية بعضها بأنواع من السجاد ولعله من تأثيرات فارسية فإن منازل الفقراء كانت لا تحوى الا عددا من الأسرّة تشبه ما يعرف (بالعنجريب) فى السودان ، وأدوات وأوانى لحفظ الأطعمة والمياه ووجدت بعض وسائل الاضاءة كالمصابيح الفخارية . كما يعتقد أن الشمع كان يستخدم أيضا لهذا الغرض ، وقد وجدت بقايا أوان من البرسلين الصينى ، كما وجدت صوان وأطباق نحاسية . هذا بالاضافة الى أوعية وأدوات من الأصداف البحرية .(٥٧)

وقد ذكر ابن بطوطة أن سكان

مقديشيو يستخدمون صحافا من الخشب .

وقد أشار الرحالة الى أنواع الأطعمة المنتشرة فى هذه المناطق الساحلية ، فالطعام السائد من الأرز والسمك واللحم وبعض الخبز من الذرة والفاكهة متنوعة ، وبالاضافة إلى الأسماك والحيوانات المائية توجد أعداد كبيرة من الأغنام والأبقار والماشية والخيول .(٥٨)

وفيما يتعلق بملابسهم فإنها تختلف تبعا لطبقات المجتمع فالاغنياء يلبسون ملابس حريرية وعمائم بينما لباس الرجل العادى لا يتعدى قميصا وفوطة تشد إلى الوسط وتتدلى حول الجزء الأسفل من الجسم . وقد أشار بعض الرحالة إلى وجود صناديق خشبية لحفظ الملابس وتتحلى النساء بقلائد وأساور وأقرطة من ذهب وفضة ، وقد عثر على أدوات للزينة من ذهب وفضة كما عثر على أدوات للزينة لحفظ المساحيق التى تشبه الكحل .(٥٩)

وكانت للمرأة فى المجتمع السواحيلى منزلة ولها احترامها ، وكان للتقاليد العربية أثرها فى ذلك ، كما أن الأسلام أضفى على المجتمع فى شرق أفريقيا الكثير من تعاليمه ومبادئه فأصبح للمرأة قيمتها فى هذا المجتمع ومركزها وحقوقها .

هكذا كان أثر العرب على المجتمع فى شرق افريقيا قويا وعميقا ، وقد لمس جميع الرحالة ذلك فى عادات الناس وتقاليدهم سواء فى حياتهم اليومية المعتادة أو فى المناسبات والمعاملات ، ولا غرابة فى هذا فقد كان أثر العرب واضحا فى جميع المجتمعات التى احتكوا بها خاصة بعد الاسلام والأسس الواضحة المعالم المحددة للمجتمع الاسلامى ، فكان الطابع الاسلامي واضحا فى مختلف المجتمعات التى وجد فيها العرب وانتشر الاسلام .

٤ ـ الأثر الثقافي للعرب فى شرق أفريقيا :

لا شك فى أن الأثر الثقافى للعرب فى شرق أفريقيا من أقوى الآثار التى ترتبت على هذه الصلات بين عرب شبه الجزيرة وسكان الساحل الشرقى للقارة . فمنذ بدأ العرب رحلاتهم التجارية للساحل الشرقى وانتشارهم فى السهول واستقرارهم فى المناطق الملائمة لهم ـ ترتب على هذا الاحتكاك انتشار ثقافة العرب وحضارتهم ، وحين جاء الاسلام كان تأثيره قويا وأثره أكبر وأعمق فالاسلام بتعاليمه كما نعلم غير حياة العرب وطبعهم بطابع مميز ، وبالطبع انعكس هذا التأثير المنظم على من اتصل بهم العرب من الشعوب الاخرى ومن يتتبع التيار العربي فى تدفقه من شبه الجزيرة الى شرق القارة يلمس بعمق أثر هذا التيار فى ثقافات هذه الشعوب

الافريقية وعاداتها وتقاليدها .

وبالطبع اختلفت هذه الآثار الثقافية قوة وضعفا تبعا لاختلاف فرص وظروف الاتصال بين العرب وسكان شرق القارة وتبعا لقوة الموجة العربية تبعا لظروف انتشار الاسلام وعدد الذين اعتنقوا الدين الجديد من السكان .

وهناك روايات عدة عن الظروف التى انتشر فيها الاسلام والثقافة العربية بين سكان المدن الساحلية مثل كلوه ، وممبسة ، ومدن ساحل الصومال الاخرى .(٦٠)

ولعل ما ذكره ابن بطوطة عن سكان ممبسة ، وكلوه يعطى فكرة عن مدى تأثرهم بالثقافة العربية فهو يذكر أنهم شافعيو المذهب ويغلب عليهم التدين والصلاح .

وقد أدى الاحتكاك العربى بشعوب شرق افريقيا لتعديل فى كثير من معتقداتهم وعاداتهم. فمثلا عبادة السلف وتقديم القرابين والأضحيات والذبائح لاسترضاء الأموات وكشف الغيب وتقديم الصدقات إلى غير ذلك من المبادىء .(٦١)

ولعل اللغة العربية من أقوى مظاهر التأثيرات الثقافية على سكان شرق أفريقيا فنتيجة المعاملات التجارية والامتزاج بين العرب والأفارقة بشرق القارة تولدت لغة هى خليط بين لهجات البانتو واللغة العربية - وهى اللغة السواحيلية - وبالاضافة الى العديد من المفردات العربية فى هذه اللغة فإن التأثيرات العربية في التراكيب والمكونات قوية .(٦٢)

ولقد أصبحت اللغة السواحيلية من أهم المقومات الحضارية لشرق القارة ، وأصبح لها آدابها وترجمت اليها بعض من أمهات الكتب ولا يتسع المجال للتعرض للنظريات المتعددة عن نشأة هذه اللغة وتطورها وقواعدها ، وآدابها لكن الظاهرة البارزة أن التأثيرات العربية قوية وواضحة فى هذه اللغة وآدابها ، وأن هذه اللغة لعبت ومازالت تلعب دورا هاما فى إبراز الشخصية المتميزة لشرق أفريقيا ولشعوبها ولدولها التى تكونت فيما بعد .

ولا شك فى أن الأدب العربى بقصصه وبطولاته وميادينه المختلفة قد أثر تأثيرا عميقا فى تكوين الشعب السواحيلى بمكوناته الثقافية . وقد وجدت فى مدن شرق أفريقيا الهامة مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم المبادىء الاساسية للحساب والحق بعض هذه المدارس التى تشبه (الكتاتيب) بالجوامع - وقد نقل العرب الكثير من معرفتهم فى مجال الملاحة وغيره لهذه البلاد .

وقد اتسع مجال وأفق سكان هذه البلاد ومعرفتهم بما يدور فى أجزاء اخرى من العالم عن طريق احتكاكهم بالعرب وبسبب رحلات العرب

وجولاتهم .

وبالطبع لا ننسى فى هذا المجال أثر الثقافة الهندية والصينية فى ثقافة سكان شرق أفريقيا - وقد وجد فى الآثار التى عثر عليها ما يدل على تأثير هذه الثقافات الهندية والصينية .

ولا شك فى أن التجار العرب لم يكونوا يحملون البضائع بين هذه البلاد فحسب لكن كانوا يسهمون فى تبادل الثقافات بين هذه الأقطار التى يتعاملون معها .

ومن يتعمق فى دراسة الأصول الثقافية لشعوب شرق أفريقيا يلمس بوضوح الأثر العربى فى التكوين الثقافى والحضارى لها .

خامساً وصول الأوربيين لشرق أفريقيا والنتائج المترتبة على ذلك

ظلت للعرب السيادة فى المدن والامارات التى كونوها فى شرق أفريقيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى فقد نجح فاسكو داجاما فى عام ١٤٩٧ فى الوصول إلى نهاية القارة وعبر رأس الرجاء الصالح إلى الساحل الشرقى حيث زار الامارات العربية فى المنطقة وقد وصف هذه الامارات وما بها من حضارة زاهرة ، ونوه داجاما بما لمسه فى دوائر بلاط الأمراء وبين الشعب وفى الأسواق من ارتفاع المستوى الحضارى الذى لا يقل ان لم يزد عن المستوى الحضارى للبرتغال ذاتها .(٦٣)

وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال عن هذا الطريق الجديد . وفى سنة ١٥٠٢ قام داجاما برحلته الثانية ، ونزل فى كلوه وتحت التهديد بإحراق المدينة أجبر سلطانها على الاعتراف بسيادة البرتغال ، وتبع ذلك خضوع زنجبار التى يصفها البرتغال بأنها كانت فى ذلك الوقت عبارة عن جزيرة خضراء ناضرة تعج حدائقها بالخضروات والفواكه .

وفى سنة ١٥٠٥ غادر لشبونة أسطول كبير من ثلاث وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دى الميدا (Francisco De Almeida) بقصد تثبيت نفوذ البرتغال فى السواحل الشرقية الافريقية ، ولتحقيق هذا الهدف أرسلت البرتغال قوة استولت على سفالة ، وحاصرت كلوه واستولت عليها بعد قتال عنيف ، وتقدموا إلى ممبسة ، وقد قاوم سكانها الذين كانوا يزيدون عن عشرة الاف الغزاة لكنهم اضطروا للتسليم فاشعل البرتغاليون النار فى المدينة انتقاما من بطولة أهلها .

وفى ١٥٠٦ أرسل أسطول برتغالى آخر من أربعين سفينة تحت قيادة البوكيرك (ALbuquerque) استولى على لامو ، وبراوة ، وجزيرة سوقطرة .

وفى ١٥٠٧ سقطت موزمبيق فى يد القائد البرتغالى دوارت داميللو (Duarte De Mello) .

وهكذا مد البرتغاليون نفوذهم على الساحل الشرقى للقارة من سفالة جنوبا الى مالندى شمالا وفى سنة ١٥٠٩ عين البرتغاليون حاكما عاما لمستعمراتهم فى شرق القارة فاتخذوا موزمبيق مركزا لهم ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اتجهوا لمهاجمة سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي معتمدين على مراكزهم وحصونهم فى شرق أفريقيا ، فهاجموا مسقط ، وهرمز ، وعدن وقد امتد هذا الصراع البرتغالى العربى واتسع واشتركت فيه الدولة العثمانية والتى أصبح لها النفوذ فى الشام ومصر والجزيرة العربية بعد القضاء على نفوذ دولة المماليك فى هذه البلاد .(٦٤)

وقد ساعد البرتغاليين فى صراعهم مع الامارات العربية فى شرق افريقيا ان هذه الامارات لم تكن ـ كما أشرنا من قبل ـ مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بل بالعكس فقد كان التنافس بينها شديدا . فالنزاع بين مالندى وممبسة مثلا والصراع بينهما للسيادة على الساحل ترتب عليه أن صفيت قوة كل منهما وخدم ذلك الغزاة البرتغاليين خاصة وأنهم كانوا يتسلحون بالأسلحة الحديثة .(٦٥)

ويذكرنا ذلك بوضع الممالك العربية فى الأندلس (ممالك الطوائف كما يطلق عليها المؤرخ عبدالله عنان) حين تعرضت للبرتغاليين والأسبان فيما أطلقوا عليه حرب الاسترداد (Reconquesta) .

خاتمة :

دفعت عدة عوامل بالعرب للخروج من شبه جزيرتهم الى شرق القارة وكان الهدف الأول لهذا الاتجاه هو التجارة لكن انتهى الأمر باستقرار بعض العرب فى شرق أفريقيا ، وبمرور الزمن كثر عدد المستقرين منهم كما دفعت عوامل اخرى بموجات جديدة من العرب استقرت فى شرق القارة واندمجت بالتدريج مع سكانها الأصليين ، وأضاف الاسلام والظروف المختلفة التى مرت بها الدولة الاسلامية الى أسباب ودوافع الهجرة لشرق القارة والاستقرار بها .

وتمكن العرب من تأسيس عدة

مدن ساحلية ، وكان امتدادهم للداخل حسب ما تطلبته الظروف .

وترتب على هذا الاحتكاك والاستقرار العربي نتائج هامة فى مختلف المجالات ، فقد كانت له آثار اقتصادية كبيرة فذاعت شهرة المدن والامارات العربية بشرق القارة كموانىء تجارية تصدر أهم غلات القارة الزراعية والحيوانية والمعدنية .

ووصل النشاط التجارى الى الشرق الأقصى إلى الهند والصين كما امتد إلى أوروبا لسد حاجتها من بضائع الشرق والحاصلات الافريقية .

وكان التأثير العربي والاسلامى الثقافى والحضارى فى شرق القارة قويا أيضا وان اختلفت التأثيرات من منطقة لاخرى ، فالقسم الشمالى من الساحل الشرقى تأثر أكثر من القسم الجنوبى الذى تبدو فيه تأثيرات المحيط الهندى وتياراته والتأثيرات الفارسية أكثر وقد اعتنق عدد كبير من سكان الجزء الشمالى من الساحل الشرقى الدين الاسلامي

ويلاحظ انه لم تتم عملية تعريب كاملة للسكان كما حدث فى كثير من البلاد التى استقر فيها العرب لكن كانت محصلة هذا الاختلاط اللغة السواحيلية التى تأثرت باللغة العربية لفظا وأدبا .

وكان تأثير العرب فى المجتمع الافريقي واضحا فى تعديل وتغيير كثير من العادات والتقاليد والسلوكيات .

وظل تأثير العرب قائما وقويا ونفوذهم واضحا إلى أن جاء البرتغاليون فحاولوا الحلول محل العرب فى نشاطهم لكن للأسف صحب هذه الموجة الاستعمارية كثير من التخريب والدمار ، وأدى قدوم البرتغاليين لصراع طويل بين القوة الاسلامية فى العالم العربي كله وبين الاوروبيين الذين تطلعوا لثروات شرق القارة والطرق التجارية التى كان يسيطر عليها العرب ، كما انفتح الطريق أمام النشاط الأوروبي المتعدد الأهداف والوسائل إلى شرق القارة ، بل امتدت الاطماع الاوروبية الى شبه جزيرة العرب نفسها وإلى المناطق العربية الاخرى الواقعة خلف شبه الجزيرة .

*****